المحاضرة الثامنة: تلمسان وازدهار الحركة الأدبية والشعرية.

1_ الموقع والنشأة:

مملكة تلمسان الزيانية مملكة أمازيغية تقع شمال غرب الجزائر الحالية، امتدت أراضيها من تلمسان إلى منعطف الشلف والجزائر، وصلت في أوجها إلى نهر ملوية في الغرب ونهر الصومام إلى الشرق وسجلماسة إلى الجنوب. وقد تأسست المملكة بعد زوال الموحدين عام 1236، وانخفض في وقت لاحق تحت الحكم العثماني في 1554.

يقول المؤرخ الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا: "يحد مملكة تلمسان واد زا ونهر ملوية غربا، والواد الكبير (الصمام) وصحراء نوميديا جنوبا. وكانت هذه المملكة تحمل في القديم اسم قيصرية، عندما كانت خاضعة لسيطرة الرومان. ثم آلت إلى ملوكها الاقدمين – وهم بنو عبد الواد المنتمون إلى مغراوة – بعد ان أجلي الرومان عن إفريقيا. وقد احتفظوا بالملك مدة 300 سنة، إلى ان انتزعه منهم امير ذو شأن كبير يسمى يغمرا سن بن زيان وورثه عنه احفاده. بحيث إن هؤلاء الملوك بدلوا اسمهم ودعوا بني زيان – أي ولاد زيان – لأن زيان هذا كان والدا ليغمرا سن.

وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، – أي بني مرين – الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسبما جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ إما القتل أو الاسر أو الفرار إلى المفازات عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس إلا انهم كانوا يسترجعون ملكهم كل مرة، واستطاعوا ان يتمتعوا في امن وسلام قرابة مائة وثلاثين عاما، دون ان يتعرضوا إلى أذى أي عاهل غريب، ما خلا أبا فارس، ملك تونس، وابنه عثمان الذي أخضع تلمسان إلى تونس فترة من الزمان طالت إلى موته.

كان تلمسان أيضا مركزا على طريق التجارة بين الشمال والجنوب من وهران على البحر الأبيض المتوسط الساحل إلى غرب السودان .كمركز تجاري مزدهر، أنها جذبت جيرانها أكثر قوة. في أوقات مختلفة من المغاربة من الغرب، والحفصيين من الشرق، وأراغون من الشمال غزت واحتلت المملكة.

منذ توجه الفتوحات العربية الإسلامية نحو الغرب– إفريقيا والمغرب– ظهر لتلمسان دور مهم في المنطقة بسبب موقعها الجغرافي المميز؛ إذ عملت بعض القبائل البربرية على التحكم بالطرق المؤدية للمغرب الأقصى؛ وبالتالي تحكمها بالمنطقة من الداخل والخارج. وقد تجمع البربر قرب تلمسان للوقوف ضد تقدم المسلمين غربا مما دفع بالمسلمين للتوجه نحوها مباشرة وضمها تحت لوائهم بعد القضاء على حركة المقاومة البربرية المتمركزة في محيطها، وبعد مد وجزر بين المسلمين والبربر استطاع الوالي المسلم حسان بن النعمان إخضاعها واتخاذها محيطا إداريا للمسلمين في المنطقة. كذلك أكد القائد طارق بن زياد على مركزية المدينة

عندما اتخذها قاعدة خلفية لجيوش المسلمين المتجهة لفتح الأندلس سنة 92هـ/ 711م. بعد انتقال السلطة في المشرق للعباسيين سنة 132هـ/750م.

استمرت الدور المائز لتلمسان إذ ظهرت في المدينة حركة ثورية ضد الدولة العباسية عرفت بالحركة الصفرية- الخوارج- بقيادة أبي قرة اليفرني، مما كلف الدولة الكثير من الرجال والأموال لإعادة إخضاع المدينة والمنطقة لسيطرتها. ولم تدم السيطرة العباسية على المدينة طويلا فسرعان ما دخلت تحت سيطرة الأدارسة في المغرب الأقصى، وأصبحت الحد الفاصل بينهم وبين الأغالبة ولاة العباسيين في المنطقة.

كذلك شهدت المدينة صراعا قويا للسيطرة عليها بعد انهيار دولة الأدارسة، بين الأمويين في الأندلس والمغرب الأقصى، والفاطميين وولاتهم في المغرب الأدنى، وقد عمل كل طرف منهما على تشجيع بعض القبائل للسيطرة على المدينة وحكمها، ومن اللافت للنظر استمرار الصراع أكثر من قرن ونصف إلى أن دخلت المدينة تحت السيطرة المرابطية، وأصبحت أحد أهم مراكز ولاياتهم خاصة أنها تقع على حدودهم الشرقية، وبعد سيطرة الدولة الموحدية على الدولة المرابطية 539هـ/1145م استمرت المدينة مركزا إداريا في المنطقة، وزادت أهميتها بعد صمودها أمام ثورة ابن الغانية بفضل قبيلة عبد الواد البربرية القريبة منها.

استغلت قبيلة بني الواد البربرية ضعف الدولة الموحدية فسيطرت على تلمسان، وبذلك بدأت مرحلة جديدة ونقلة نوعية في تاريخ المدينة امتدت من سنة 633- 962هـ/ 1235- 1555م؛ حيث أصبحت خلالها عاصمة لدولة إسلامية شملت المغرب الأوسط- الجزائر- وأصبحت من أهم ثلاث مدن في المغرب الإسلامي هي؛ فاس وتلمسان وتونس.

لقد برزت شخصية المدينة وخصوصيتها في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية؛ ذ فقد لعبت دور الوسيط التجاري داخل البحر الأبيض المتوسط بين أوروبا شمالا وبلاد الصحراء جنوبا، مما ساعد على ازدهارها سياسيا وعمرانيا وفكريا، وانعكس ذلك على سكانها بشكل إيجابي.

إن وقوع تلمسان في الوسط بين فاس في المغرب، وتونس في الشرق، جعل المدينة محط أنظار الجوار، ودفعهم بصورة دائمة لمحاولة السيطرة على المدينة وإخضاعها، مما سبب صراعا بين العواصم الثلاث استمر حوالي ثلاث عقود، نتج عنه في النهاية ضياع الأندلس وضعف الدول نفسها لعدم قدرتها على مقاومة القوى المسيحية الأوروبية الاسبانية والبرتغالية؛ إذ لا أحد ينكر دور الصراعات الداخلية في ضعف تلمسان والدولة الزيانية وتراجع مكانتها، فالثورات التي قام بها أفراد الأسرة الزيانية واستنجادهم بدول الجوار ساعد على تغذية الرغبة في السيطرة عليها، مما أدى إلى ضعفها وسقوطها فريسة سهلة بين الإسبان والعثمانيين.

2_ الحركة الأدبية والشعرية: عرفت تلمسان فترة الدولة الزيانية ازدهارا أدبيا، شعرا ونثرا، وكتب الأدب والتاريخ تحفظ كما هائلا مما جاد به أدباء تلمسان، فقد ظلت الدولة الزيانية تبجل الأدب وتقدمه

في المجالس وفي الحياة اليومية، وممن انتعش الأدب في أيامه بعده أبو مالك عبد الواحد الزياني (814 – 827 هـ)، الذي يشيد به التنسي في قوله: إن الأدباء جاءوا إلى بابه ينسلون من كل حدب، فينقلبون بجر الحقائب، ظافرين بجزيل الرغائب، ويضرب مثلا لمادحيه من غير التلمسانيين قصيدة لشاعر فارسي يسمى على العشّاب يهنئه فيها ببعض فتوحه قائلا:

ملك تجلّل بالمهابة وارتدى *** وسما فدان له الزمان الأسعد

كم بيّنت آراؤه من مشكل *** والله يكفل ملكه ويؤيّد

ملك أبى الرحمن إلا نصره *** فمن الذى يخفى سناه ويخمد

وربما كان أهم حاكم زيان بتلمسان بعده المتوكل، ويعنى الفقيه التنسي بوضع كتاب أرّخ فيه له ولأسرته– كما مرّ بنا–سماه نظم الدر والعقيان في بيان شرف بنى زيان، وأنهى حديثه فيه عنه بقصيدة في مديحه ومديح أبنائه الستة، وفيه يقول:

حوى في صباه من وثاقة رأيه *** مع الحزم ما لم تحوه اللّمم الشّمط

هو البحر جودا من جميع جهاته *** فمعروفه لجّ وإحسانه الشّطّ

وكلّ بنى الآمال ساعون نحوه *** كذا كلّ من أضناه من دهره قسط

وبرّز من بين الملوك مجليا *** وأعطاه ربّ العرش فوق الذى أعطوا

وتضعف الدولتان الزيانية والحفصية مع أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى فرديناند ملك إسبانيا من الدولتين على الثغور الشمالية المهمة للجزائر. ويتصدى له خير الدين (بربروس) وعروج ويستخلصان منه مدينة الجزائر سنة 922 هـ/1516 م وما يزال خير الدين ينازله مستوليا منه على الثغور الشمالية ما عدا المرسى الكبير ووهران، ويضيف إقليم الجزائر إلى الدولة العثمانية، ويخلفه عليه ابنه حسن، ولا يزال الجزائريون يستحثونه على منازلة الإسبان، ويسترجع منهم في سنة 948 هـ/1541 م المرسى الكبير والجزء الأعلى من وهران، ويهنئه الشاعر عبد الرحمن بن موسى بمثل قوله:

هنيئا لكم باشا الجزائر والغرب *** بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب

وأبقاك ربى فاتحا لحصونهم *** وكهفا منيعا ذا عتوّ وذا ضرب

ويريد بالكلب شارل الخامس ملك إسبانيا وكان قد ساق إلى الجزائر حملة كبيرة، فسحقها البايلاريك حسن. وتظل وهران مع الإسبان، وما يزال الشعراء يستحثون الولاة العثمانيين في فتحها من مثل محمد بن عبد المؤمن الذى يستحث الداي «باب حسن» على فتحها في حماسية طويلة منشدا:

نادتك وهران فلب نداها *** وانزل بها لا تقصدن سواها

واستدع طائفة العساكر نحوها *** يغزونها ولينزلوا بفناها

أضحى الصّليب مؤيدا والدين قد *** درست معالمه فلست تراها

فادع الغزاة لغزوها مستنجدا ***وانهض إليها وانزلن مرساها

ويتولى محمد بكداش مقاليد الولاية سنة 1118 هـ/1706 م فيعظم الأمل في نفوس الجزائريين أن يحقق لهم أمنيتهم في فتح وهران، ويهنئه يحيى بن أبى راشد مشيدا به في قوله:

ملك تفرّد بالكمال ولم يكن *** لكماله في السالفين مثال

دانت له الأيّام طرّا مثلما *** دانت لليث الغابة الأشبال

خضعت لسطوته الملوك وسلّمت *** لجلاله الأمراء والأقيال

ويكثر الشعراء من استثارة بكداش. ويدور العام الأول من حكمه، ويفتتح وهران عنوة سنة 1119 هـ/1707 م وكان أديبا يجمع النثر والخطابة والشعر، وتبارى شعراء الجزائر والمغرب فى تهنئته بهذا النصر العظيم، وجمع محمد بن ميمون ما نظم فيه من شعر منذ ولايته فى كتابه «التحفة المرضية فى الدولة البكداشية» وجعله في ست عشرة مقامة. ومن شعرائه أحمد بن قاسم البونى ومحمد القوجيلي والمستغانمي.

3_ تلمسان في الشعر: لا عجب أن تجذب تلمسان عددا وافرا من أهل العلم والأدب والتأليف، وبخاصة مع تدهور الحكم الإسلامي في الأندلس، بعد أن صارت مدينة جاذبة للعلماء والكتاب والأدباء والشعراء، بسبب كونها حاضرة لدول مستقلة أو شبه مستقلة؛ إضافة لما نبغ فيها من علماء وشعراء وكتاب

ومؤرخين. ونحن نعلم أن قصور السلاطين كانت مراكز النشاط العلمي والمعرفي، وعطاياهم كانت شريان الحياة للأدباء والشعراء والمؤلفين.

1_ ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي (595-658 هـ): يقول في تلمسان:

رأى الله ما أرضاه من سعيه الأسنى*** فجدد بالعام الجديد له الحسنى

وأما تلمسان وفاس وسبتة *** فتلك ليمناه أعنّتها تُثنى

ويذكرها في قصيدة مطلعها:

أبقت لصحوي من علاقتها نشوى *** رمتني بسهم اللحظ عمدا فما أشوى

كما يذكر تلمسان في قوله:

فتلك تلمسان ومليانة إلى *** طرابلسٍ روعا مجدةً رعوى

ثم يذكر تلمسان في قوله:

دعتك تلمسان فلبيتَ صوتها *** مجيرا وناب الجوْر يوسعها عضا

ومن قصيدة أخرى:

جاوز تلمسان فتحا لاحقا بسلا *** يكفُّ من كفر النعمى ويكفؤه

ويعرج على تلمسان في قوله:

بفتح تلمسانٍ على الشرك عنوةً *** أشقَّ بحكم القسر منه على الأشقى

وهذه من "نفح الطيب".

والقصيدة الأخيرة مذكورة أيضا في "**الروض المعطار في خبر الأقطار" لابن عبد المنعم الحميري** (-900هـ/ 1495).

2_ لسان الدين ابن الخطيب: هو أبو عبد الله محمد بن سعيد السلماني اللوشي الأصل الغرناطي الأندلسي الشهير بلسان الدين (713-776 هـ):

نجد في كتاب "**أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" للمقري،** ما يلي:

حيَّا تلمسان الحيا فربوعها *** صدف يجود بدره المكنون

ومن قصيدة أخرى:

أطاع لساني في مديحك إحساني *** وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

ومن كتاب "**الإحاطة في أخبار غرناطة**" للسان الدين، نجد له:

ونجَم المهدي وهو الداهية*** فأصبحت تلك المباني واهية

3_ **أبو عبد الله بن يوسف القيسي الثغري**: الفقيه الكاتب كاتب سلطان تلمسان أبي حمّو موسى بن يوسف الزياني من قصيدة مطلعها:

أيها الحافظون عهد الوداد *** جددوا أنسنا بباب الجياد

كل حُسن على تلمسان وقف *** وخصوصا على ربى العبّاد

وله يمدح تلمسان:

تاهت تلمسان بحسن شبابها *** وبدا طراز الحسن في جلبابها

فالبشر يبدو من حباب ثغورها *** مبسّما أو من ثغور حبابها

وله اللامية في مدح السلطان أبي حمّو يذكر فيها تلمسان:

قم مبصرا زمن الربيع المقبل *** ترَ ما يسر المجتني والمجتلي

تاهت تلمسانُ بدولته على *** كل البلاد بحسن منظرها الجل

واشرفْ على الشرف الذي بإزائها *** لترى تلمسان العلية من عل

فإذا دنت شمس الأصيل لغربها *** فإلى تلمسان الأصيلة فادخل

4_ محمد بن خميس بن عمر بن محمد بن عمر الحجري: يقول:

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء *** فعند صباها من تلمسان أنباء

وفي قصيدة أخرى، مطلعها:

أطار فؤادي برق ألاحا *** رقم ضم بعد لو كر جناحا

وطوح بي عن تلمسان ما *** ظننت فراقي لها أن يتاحا

5_ ابن اللبانة وهو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي: له موشحات. ومن موشحه المذكور في كتاب "**الوافي بالوفيات**" **لصلاح الدين الصفدي**" ذكر لتلمسان في قوله:

حيا النسيم تلمسان بواكف القطر هطال

فقد قضت كل إحسان بجودها يا ابن شملال

6/ الشيخ أبو بكر العمري: كتب المقري في "**نفح الطيب**: وخاطبني الأديب الفاضل **الشيخ أبو بكر العمري، شيخ الأدباء بدمشق** حفظه الله تعالى بقوله:

تاهت تلمسان على مدن الدنا *** بعالم في العالمين يحمد

المقري احمد رب الحجا *** الكامل البحر الخضم المزبد

مالك هذا العصر شافعيه *** أحمده نعمانها المسدد

7_ أبو عبد الله ابن مرزوق الحفيد: يقول:

بلد الجدار ما أمر نواها *** كلف الفؤاد بحبها وهواها

يا عاذلي كن عاذري في حبها *** يكفيك منها ماؤها وهواها

ملاحظة: تعرف تلمسان **ببلد الجدار**

8_ شاعر الوزير أبي علي الحسن بن خلاص صاحب سبتة: نجده انحاز إلى أمير المسلمين يغمراسن ضد السعيد بن المأمون الموحدي (تولى الحكم سنة 640 هـ/1242م إلى 1248/646)، وأدى النزاع إلى مقتل السعيد، ذكر هذه الواقعة في قصيدة مطلعها

بشرى بعاجل فتح أوجب العرس *** وأسفر الدهر عنه بعد ما عبسا

رجا تلمسان أن تغدو فريسته *** فثل من دونها للوجه وافترسا

خاتمة: لا عجب أن تُحظى تلمسان بهذا الكم من الذكر أو أكثر. فمدينة عريقة، كانت عاصمة لدول مستقلة أو شبه مستقلة، في منطقة غنية، يطمع بها الطامعون، ستجذب حقا إليها أهل العلم على اختلاف فنونهم. وبما أن أهل الأدب كانوا يتعيشون من القرب من السلاطين، فلا عجب أن تجذب تلمسان على مر عدة قرون عددا وافرا من أهل الأدب والمعارف. ويترجم كتاب "معجم أعلام تلمسان" للأستاذ الدكتور التجيني بن عيسى لِـ 459 من هؤلاء. كما أن د. محمد رمزي يترجم لأعداد أخرى في كتابه "المفكرون والشخصيات اللامعة في تلمسان". وآمل أن يجود الزمان بالوقت والجهد الكافيين لتكون هذه المقالة خميرة لكتاب عن تلمسان في الشعر، مع التحليل.